الذهب في مناجمه وخاصة في سورية

بقلم مرتن جبر

٢

تتمة

الذهب في سورية

من زبائن الصاغة والجوهريين في انطاكية بعضُ الفلاحات والقرويات يأتين من ضيعة مجاورة للمدينة ، فيقصدنَ توًا مراكز الصياغة لا لشراء المجوهرات والحلي ، بل لبيع ما يحملنه من مسحوق الذهب البالغ احياناً عدة غرامات . فيأخذه الصائغ وينقد صاحبته كمية تُذكر من المال . ومن المعروف المشهور هناك انه يكفي القروية ، كي تستخرج ذاك الذهب ، ان تغسل تراب احدى السواقي الجارية بالقرب من قرية العاقلية ، في ضواحي انطاكيـة ، فتفرز دقائق الرمل من الحصى في بركة ماء ، ثم تأخذ الرمل الراسب الثقيـل فتبسطه على لوحة متحدرة قليلًا وتصبّ عليها الماء شيئاً فشيئاً فيذهب الرمل ، وتبقى عالقةً باللوحة ذرّات ثقيلة صفراء برّاقة ، هي ذرّات الذهب. وهي التي تجمعها القروية برأس السكين ذرّة ذرّة ، جادّة مجتهدة في الغسل والفرز والجمع حتى يحصل لها عدة غرامات ، فتحملها فرحة الى صاغة انطاكية. فيدفعون لها ثقل ذرّاتها ذهباً، اي انهم يشترون بالليرة التركية الذهبية ثقلها من تلك الذرّات.

ولا تظنّوا ان الصائغ يخسر بتلك العملية . فان الليرة التركية لا يعادل عيار ذهبها الخالص الّا ٩٠٠ الى ٩١٦ من الالف . اما تلك الذرّات والدقائق فكثيرًا ما يبلغ عيارها ٩٥٠ الى ٩٨٠ من الالف من الذهب الخالص . وعليه يكون ربح الصائغ من ٥٠ الى ٦٤ في الالف.

وقد زرنا مؤخرًا قرية العاقلية وفحصنا ترابها ، فاذا هناك منجم حقيقي من الذهب الراسي الذي قدّمنا الكلام عليه . وهو يشبه شبهاً غريباً ما فحصناه من المناجم المهمّة.

تقع طبقة هذا المنجم على ضفتي ساقية تجري في الوادي الواصل بين جبل الامانوس ونهر العاصي . وقد يرقى عمرها الى العصر الجليدي الثاني ، وهو عصر قليل الظواهر في شمال سورية .

اما تكوين تلك الارض فناتج دون شك عن تراكم المواد المختلفة التي اثارتها وجرتها الظواهر العنصرية فكونت اولاً طبقة من الرمال الخشنة ، يليها طبقة تكثر فيها العناصر الكوارتزية ، ثم طبقة رقيقة من الرواسب خالية من الصوان ، واخيراً طبقة الارض الزراعية الحالية . وكل ما في هذه الارض من العناصر يرتكز الى لوحة صخرية جبسية المادة على الغالب ، كثيرة العروق المنتظمة تتبع سيراً واحداً من الشمال والشمال الشرقي الى الجنوب والجنوب الغربي بانحناء تبلغ زاويته من ٢٠ الى ٢٣ درجة .

ولا شك ان ما رأينا فوق تلك الطبقات الراسبية من عروق الكوارتز المعدني مخلوط فيه كثير من العناصر الذهبية والحديدية الممغنطة ، والرصاصية ، وما الى ذلك ، مما يظهر اذا ما غسلت رمال تلك الطبقة غسلاً متقناً كاملاً . واثناء فحصنا تلك المحلة عثرنا على آثار اشغال قديمة تدل على ان ذاك المنجم لفت انظار السلف فاستغلوه في عصور متقدمة جداً .

وقد شئنا ان نختبر بنفسنا كمية الذهب الممكن استخراجه فغسلنا شيئاً من طبقة الرمل والحصى ، فكان لنا من ٥ الى ٧ الى ١٠ غرامات في المتر المكعب . وهو قدر لا بأس به ، والمنجم في حالته الحاضرة . اما ما سيؤول اليه فهو سر المستقبل .

* * *

لننتقل الآن الى ذكر النوع الثاني من الذهب المعدني وهو الذهب العرقي الذي نستخرجه من الصخور او الفلزات المختلفة المشتملة عليه .

واشهر هذه الفلزات فلز الكوارتز الذهبي . وهو لا يكاد يختلف ، بظاهره ، في شيء عن انواع الكوارتز المعروفة . ويكون الذهب مختفياً في داخله على الغالب ، الا في ما ندر ، فيبدو الذهب على ظاهر الكوارتز في امثلة قليلة محفوظة في المتاحف او المختبرات او المجاميع الخصوصية ، او عند

بعض الناس يستعملونها اعلاناً لمشروع ذي خطر ومجازفة ، وتمويهاً على السذج فيدفعونهم الى مناصرة ذاك المشروع .

اما الخبيرون بامور التعدين ، المطّلعون على ميزات الفلزات والمعادن ، فلا تغرّهم الامثلة اللماعة ولا المناظر البرّاقة . لانهم على يقين من قيمتها الحقيقية . وهم متأكدون انه اذا امكن استخراج ٢٠ او ٣٠ غراماً ذهبياً من الطن ، فذلك ان المنجم صالحٌ موافق للاستثمار . وهم لا يطمعون بما وراء ذلك .

ولنعد الآن الى الكوارتز الذهبي . فهو ، وان لم يختلف اختلافاً يُذكر عن سائر انواع الكوارتز ، فان انواعه تتباين بتباين البلاد ، بل بتباين المناجم في البلد الواحد . فيصطبغ بالوان متنوّعة ، ويتصف بترتيب في طبقاته وخطوطه ومقادير اجزائه قد تكون شديدة الاختلاف حتى ان الخبيرين انفسهم لا يتمكنون من الحكم لدى فحص مثالٍ واحد . ولا واسطة دقيقة لمعرفة قيمة المثال الكوارتزي الّا التجربة والتحليل بالطريقة الجافّة ، والصهر ، والقطع وفحص الرقائق ليتحقق المختبر ذرة الذهب فيها . وفي ما عدا ذلك ، يلزم الخبير ان يحافظ على الاحتياط والتحفظ التام في حكمه على قطعة من الكوارتز يراها لأول مرّة .

وكثيراً ما يكون الكوارتز محتوياً على معادن ومزيجات رصاصية او نحاسية او كبريتية تصبغه بالوان تميل الى الاخضر او الى الازرق او الى الاحمر . ولكن مهما يكن من الأمر ، فيجب على الخبير اولاً ان يعرض كل ذلك على محكّ المختبر ، فيتبيّن الكوارتز الذهبي من غيره . فاذا تحقق ذلك امكن معالجة الكوارتز المذكور بالسحق ، او المزج مع الزئبق او مع السيانوز ، او بالتركيز .

على ان هناك كثيراً من الفلزات تحتوي على شيء من الذهب ، وهي كثيرة التنوّع قليلة مقدار الذهب على الغالب فلا يهمنا امرها . ثم لا يندر ان تروا نوعاً لا تجدون له ذكراً في كتب المعدنيّات ، ولا يعرف قيمته الّا كبار المعدّنين وخبيرو المناجم . فيسمّونه « ذهب الهرّ » . وهو جميل المنظر اصفر برّاق لمّاع . ولكنه لا ينفق عند الصاغة . فهو لا يذوب ، وسرعان ما يسود

على النـار . وهو ليس من الذهب في شيء . ان هو الّا نوع من الميكا او مزيج من الحديد يؤخذ السذّج ببريقه الشديد، فيشترونه ذهباً خالصاً حتى يصح المثل: « ما كلّ برّاق بذهب ! »

الذهب في الصناعة

بعد ان تُستخرج الفلزات الذهبية من مناجمها ، تُحوّل الى معمل حافـل بالادوات المختلفـة ، فيجرى عليها سلسلة من العمليات حتى يُستخلص منهـا الذهب الصافي ، كما سنرى . ولا يخفى ان هندسة المعامل ، وتركيبها ، وقوة ادواتها يختلف باختلاف النواحي . ولكن يمكننا ان نجرّد من كل ذلـك وصفاً عاماً للمعمل نذكره في ما يلي .

لا يختلف تعدين الذهب في شيء مهم عن تعدين سائر المعادن الّا بان فلزاته الصخرية اصلب من غيرها . ولهذا نرى الشغل اليدوي عقيماً في ثقب حجارة الكوارتز . فلا بدّ من استعمال مثقب الهواء المضغوط ، واستعمال نوع شديد منه لا تقل قوته عن عشرة احصنة ، ودوراته عن ٣٠٠ الى ٦٠٠ دورة في الدقيقة .

اما تفكيك الصفائح الصخرية فيكون بواسطة الموادّ المنفجرة كالديناميت وما شاكل . فاذا حصلت الفلزات للمعدّن ارسلها حالًا الى الطاحون .

وطاحون الذهب معمل على غاية من الترتيب حتى ان كل العمليات تجري فيه من تلقاء نفسها . فتصل قطع الكوارتز من المنجم فتفرغ حالًا في اقماع كبيرة تتحرك في قعرها آلات تغربل تلك الفلزات . حتى اذا كان فيها قطع كبيرة حُولت الى مِكسَرة قوية تكسرها بحجم البندقة او حبة الحمص . ثم تجتمع هذه القطع الخارجة من الغربال ومن المكسرة في مجرى واحد ؛ تنحطّ اليه ، كل ساعة ، آلة خاصة فتتناول منه مثالًا يُرسل حالًا الى المختبر فيحلله اربابه فيعلمون ساعةً فساعةً مقدار الذهب في تلك الفلزات ، وهل هو ينقص ام يزيد ، وهل يجب وقف العمل ام التحوير فيه .

وبعد عملية التكسير ، تسير القطع المعدنية نحو مسحقة عظيمة من النوع

الكاليفورني . وهي كناية عن مرجل كبير على شكل جذع الهرم المقلوب ، بُطّن بصفائح من نحاس مفضّض يعلوها الزئبق . وفوق ذاك المرجل مطرقة عظيمة تزن من ٣٥٠ الى ٤٠٠ كيلو غرام فترتفع وتهبط ثمانين مرّة في الدقيقة ، على سندان من الفولاذ ، وسط المرجل ، تقع عليه قطع الكوارتز فتسحقها المطرقة دقيقاً ناعماً . وفي المرجل حنفية تُرسل عند اللزوم كمية من الماء فتحوّل مسحوق المعدن الى منخل في ناحية من المرجل. حتى اذا اخرجت منه ، وصلت الى الصفائح النحاسية المغشّاة بالزئبق . فيمتزج الزئبق بدقائق الذهب ، ويترك سائر الدقائق فتهبط الى اسفل.

ولمّا كان ولا بدّ ان بعض الدقائق الرملية لا تتخلى عن كل ما فيها من الذهب بتلك الطريقة ، نرى في المعمل طريقة اخرى ، وهي مزج ذاك الرمل الذهبي بالسيانور . ويكون العمل بان يُحوّل المسحوق المعدني الى آنية فيها محلول من سيانور البوتاسيوم بمقدار ٠,٦ الى ٠,٨ بالمئة . وبهذه الوسيلة يُستخرج من ٩٠ الى ٩٣ بالمائة من الذهب الباقي في المسحوق بعد عملية المزج الزئبقي . حتى ان التراب او الرمل الخارج من تينك العمليتين لا يبقى فيه الّا آثار لا تذكر من الذهب في كل طنّ.

على ان هذه العمليات المتابعة لم توصلنا الى الذهب الخالص الذي نتمكن من ارساله الى البنك او الى ادارة سكّ النقود . فيلزمنا اذاً تطهير المزيج ، واستخراج محصول التركيز ، ومعالجة سائل السيانور . واشهر تلك العمليات ما نلخص وصفه ادناه :

كلما تابع سير الطاحون ، ازدادت سماكة الصفائح النحاسية الحاملة الزئبق. ولا بدّ من ان يراقب ذاك العمل رجل خبير متضلّع من نظريات تعدين الذهب ومتمرّن على العمل ، وحاصل فوق ذلك ، على ضمانات مهمّة من احد كبار المصارف . فهذا الرقيب ، يُضيف عند اللزوم شيئاً من الزئبق في المرجل حيث يختلط بالدقيق المعدني ويخرج معه من المنخل ، فيلتصق بالصفائح ، حتى اذا زادت سماكتها قشطها الرقيب بواسطة نصل من الكارتشوك فسقط عنها المزيج في اقنية خاصة تجرّه الى صندوق محكم القفل في اسفله جيب من جلد الوعل

يحتفظ بالذهب ، ويترك القسم الكبير من الزئبق فيسقط في الخارج ويعود الى المرجل ليُستعمل من جديد.

وعندما يمتلئ ذاك الجيب يؤخذ فيشدّ بواسطة ضاغطة صغيرة . ثم يُجمع ما يُخرج منه ، فيقطّر بانبيق خاصّ من الحديد. امّا ما يتصعّد من بخار الزيبق فيتكاثف رويداً ويجمع على ناحية . واما الذهب الباقي على شكلٍ دقيق اغبر ، فيُذوّب ويصبّ سبائك يعيّن عيارها بكل دقة في المختبر، ثم تُوجه نحو البنك او نحو ادارة سكّ النقود.

امّا فلزات الذهب المركّزة فلا يمكن معالجتها في المناجم المذكورة لقلّة ما فيها من الذهب . فتُرسل الى معامل التعدين الاعتيادية ، فيشتريها اربابها ويضيفونها الى غيرها من الفلزات والامزجة كالرصاص الفضي او النحاس الذهبي او ما شاكل.

واما محاول السيانور فترفعه مضخّات خاصّة وتصبّه في آنية فيها رقائق دقيقة من الزنك ، اذا ما صادفها الذهب تهافت وسقط من السائل . ثم تؤخذ هذه الرقائق وتُعالج امّا بالحامض الكبريتي ، او بالتقطير في انبيق خاصّ فيتصعّد بخار الاوكسيد الزنكي الابيض ، ويترك دقيق الذهب الاغبر الذي يُصهر ويصبّ سبائك ، كما تقدّم في العملية الاولى.

***

هذا ما رأينا ذكره من عمليات الذهب الدقيقة الصعبة الطويلة. فاذا سمعتم يوماً ما ان فلاناً من اصحاب الملايين ، سهل عليكم تصوّر تلك الثروة. وانتم اذا حسبتم ذلك ، على سعر الذهب اليوم ، رأيتم ان مليونه يتمثّل بسبيكة ذهبية يبلغ طولها ٢٥ سنتيمتراً بعرض ١٣ سنتيمتراً، وسماكة ١٠ سنتيمترات لا غير ، ولكنها ثقيلة جداً، لانها تزن ٦٢ كيلوغراماً ونصف الكيلوغرام.

صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني

الياس بطرس الحويك

١٨٤٢-١٩٣١

بقلم الخوري منصور عوّاد عوّاد

٣

البطريرك

في اليوم الرابع والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٩٨ ، كانت الثلوج تغطّي لبنان بآكامه وسفوحه ، من شاطئ البحر الى اعلى قمة فيه . وكانت سماء لبنان مربدّة قاتمة تجللها الغيوم والسحب وقد تجمدت من قرص البرد ، وبدا البحر متجهماً وجهه ، مسودّاً كله، مرعباً منظره لا يظهر منه الا امواجه تتكسر على الشاطئ مزبدة بيضاء تحاكي في ذلك القتام الطبيعي النهاري بقيّة الامل في عيني الرجل اليائس من الحياة ابان شدة محنته واشتداد قنوطه! وقد عمّ السكون البلاد بأسرها فلا صوت للطبيعة ، ولا صوت للناس. فهم قد لازموا بيوتهم مختبئين وكان الرعد يختنق عند دويّه كأنه صادر من صدر فيه حشرجة الموت ، فكان الثلج وهو يغطّي ارض لبنان جميعها كأنه كفن اعدّته يد الرب للبنانيّين عظيمَين انطفأ سراج حياتهما في ذلك النهار ، بل كانت السحب باربداد وجهها كأنها بساط الرحمة الالهية نُشر على وجه السماء حداداً على الراحلَين الكبيرَين . كان احدهما مجهولاً لدى الناس معروفاً لدى الله ، منقطعاً الى خدمة ربه في صومعة على رأس جبل في محبسة دير مار مارون عنّايا ، وهو الحبيس الاب شربل مخلوف بقاعكفرا الراهب اللبناني الذي عُرف منذ طفوليته بالقداسة وكان قديساً في جميع ادوار حياته الرهبانية. والذي مضى على وفاته ثلاثة وثلاثون عاماً ولا يزال جثمانه محفوظاً الى يومنا هذا كأن روحه لم تفارقه الا منذ ساعات ، بل لا يزال يرشح من جثمانه عرق لا يرشح الا من

اجساد الاحياء! هذا هو احد الراحلين في ذلك النهار، وقد تحدث الناس في عجائبه وعجيب بقاء جثمانه في تلك الحالة الغير الطبيعية حتى هذه الساعة. وهو الذي بُوشر الفحص عن قداسته بطريقة قانونية لتثبيته قديساً وتكريمه على المذابح.

واما الراحل الآخر العظيم امام الله والناس فقد كان البطريرك الماروني يوحنا الحاج الاداري الاوحد، السياسي الفذ، الماضي العزيمة، العامل، النقاد، النادر المثال بنشاطه وعزة نفسه وبراعته في الحكم، الراعي الصالح الذي رعى الملة المارونية نحو تسع سنوات فبلغ بها شأواً عالياً مجيداً قد لا يبلغه غيره في سنوات كثيرة!

وكانت اجراس الكنائس في الطائفة المارونية، من سيف البحر الى ما وراء جبل لبنان الشرقي، تنعي البطريرك باصواتها المختنقة حزناً وألماً وفي رنتها غصة الموت واصوات القبور فتها فيها الصقيع والهواء المتلبس بضباب الثلوج فظنها الناس مدركة هول المصاب بمن تنعاه مختنقة اللب والصوت عليه!

وكانت العواصف في البحر الى مجال بعيد تحمل في احشائها صدى النكبة الشديدة التي انتابت الموارنة. فأطلَّ الموارنة وسائر اللبنانيين معهم من كوى بيوتهم يبحثون في ذلك الفضاء القاتم عن نجم البطريركية. فخاله اكثر الناس في «نجم» كسروان الذي كان يرسل اشعته في سائر البلاد، كأنه نجمة الصبح الصاعدة فوق صنين تبشر بالصباح، ولا غرو فقد كان ألف اللبنانيون منذ قرن ان يروا نجوم البطاركة تبزغ من كسروان، من البطريرك العالم يوحنا الحلو الى البطريرك الفتي يوسف حبيش الى يوسف الخازن فبولس مسعد فيوحنا الحاج. ولكن ما اقصر مدى الابصار البشرية فانظار الناس لها افق ضيق تكون تعباء اذا علقنا كل آمالنا عليه وعلى ما يبصر الناس منه، وللعناية الالهية افق وسيع بل غير متناه لا يحده حدٌّ بشري!

ولا يُستغرب افتكار الموارنة بمن يخلف البطريرك يوحنا الحاج ساعة فُجعوا به فهذا مألوف البشر ان يودّعوا الملك الميت: مات الملك، ليحيَ الملك! فالبطريرك الماروني ملك في الشرق ورأس لا تعيش الملة بدونه، فلا يحيا الجسم بدون رأس. لا يُستغربن الامر والبطريرك الماروني هو المرجع الاكبر الاول في حياة البلاد الدينية والسياسية، وللناس كلهم مصالح في الدين والدنيا، وحيث تكون مصلحة

الانثان فهناك عقله وقلبه ، بل ان البطريرك الماروني أب للملة المارونية،والابناء لا يستطيعون،اذا مات والدهم،ان يعيشوا ايتاماً اذا كان في وسعهم ان يستعيدوا أباهم الى الحياة ، فبانتخاب الخلف البطريركي يعود ابو الطائفة الى الحياة في شخص خليفته. وهذا سرّ توجه انظار الموارنة حال وفاة بطريركهم الى من يخلفه لا لانهم ينسون او يتناسون السلف العظيم بل لانهم يحبون الحياة ويريدونها اغزر مما كانت في الرأس الجديد حيث حياتهم بكل انواعها ومظاهرها.

فبينا كان اللبنانيون ينظرون الى « نجم » كسروان البهيج ، كانت العناية الالهية قد حوّلت نظرها الى نجم آخر اعدّته للموارنة وللبنان ، الى نجم حلتا المحتجب آنئذٍ في رومية وراء البحار والعواصف ، يبتهج بنوره تلامذة المدرسة المارونية ، دون سواهم ، يبتهجون بـه ولا يقدرونه قدره ولو أُعطي لهم ان يدركوا من كان ومن سيكون ذلك الرئيس لطبعوا عليـه عيونهم وقلوبهم ولما فارقوه قيد لحظة طيلة اقامته بينهم رئيساً عليهم !

حملت اسلاك البرق الى رومية نبأ كارثة الموارنة بيطريركهم يوحنا الحاج ؛ فعظم المصاب على المطران الياس الحويك واتجهت انظاره الى السدة البطريركية واخذ يفكر في من يجب ان يخلف ذلـك الطود العظيم الذي غاص في بحر الابدية ويتأمل في عظم المسئولية التي ستُلقى على كاهله ، ويطلب من الله ان يقيّض لطائفته راعياً حكيماً ، غيوراً ، عالماً ، خبيراً ليسوسها سياسة رشيدة على حسب ما يقتضيه العصر وحاجاته.

كان فكره يجول متنقلاً بين احبار الطائفة يزنهم واحداً فواحداً ليرى من كان كفوءاً لذلك المنصب الخطير السامي والعبء الثقيل. وكان يرى الكفاءة في صديقه المطران يوسف ابي نجم،شأنه في ذلك شأن جميع الموارنة في تلك الايام. وما خطر بباله انه سيكون هو خلف البطريرك يوحنا الحاج ، لانه لم يكن معتقداً بذاته انه افضل من ذاك او من سواه ، ولانـه كان يزعجه كثيراً ركوب البحر في الصيف والبحر صافٍ هادئ ، فكيف بـه وهو وقتئذٍ في ابان الشتاء والعواصف تلو العواصف والاعصار يتبع الاعاصير. وكان الوقت ضيقاً لا يمكّنه من الوصول الى مجمع انتخاب البطريرك في الوقت المناسب . كل هذا

جال في خاطره فحسبه دليلاً من الله على انه تعالى لا يريده للبطريركية، فعرضه على مجمع انتشار الايمان المقدس في رومية ليستنير برأيه ويرتشد باوامره ويلقي عن عاتقه عبء المسئولية في ما عزم على عمله بالبقاء في رومية ، فاقنعه مجمع انتشار الايمان بوجوب الرجوع الى لبنان للاشتراك في انتخاب البطريرك. فظنَّ انه بمواجهته البابا لاون الثالث عشر يستطيع ان يتخلّص ويتخلّف في رومية ، فجاء الامر معكوساً . لان العناية الالهية ، التي كانت اختارت شعاراً للاون الثالث عشر العظيم نجماً وضاء ، كانت قد اختارت النجم ذاته طالعاً سعيداً للبنان بالحويك . فما كان من لاون الثالث عشر الا ان امره بالمبادرة الى لبنان. وكأن ذلك الحبر الاعظم الخالد الذكر بفراسته قد قرأ ما سبقت ورسمته العناية الالهيّة للبنان على يد الحويك فصرّح له بتلك الارادة العالية الابوية . فانحنى الحويك ملبياً اشارة من اشارته حكم مطيعاً لرغبته وغادره وغادر رومية متزودًا ببركته الرسولية متيمناً بها ، متّكلاً على الله مرتمياً بين يدي الرب. فحملته انواء البحر وعواصفه ، وهو لا يعي على شيء من شدة الدوار الذي المّ به ، الى ان بلغ لبنان عند مغيب اليوم الرابع من كانون الثاني سنة ١٨٩٦ . وفي صباح اليوم الخامس من الشهر عينه قُرعت اجراس لبنان من اطرافه الى اطرافه تبشّر الموارنة والبلاد بأن قد ارتقى الى السدة البطريركية الانطاكية على الموارنة المطران الياس الحويك باجماع الرأي بين اساقفة الموارنة في ذلك العهد . فاستغرب الناس عند ما رأوا ذلك النجم الذي ما كان احد يفكر فيه ، ولم يكتموا استغرابهم !

غير ان الله الذي ربط حظ الموارنة بالسدة البابوية الرومانية شاء ان يبزغ هذا النجم من ذلك الافق العالي الفسيح ليُفهم الموارنة واللبنانيين ان طالعهم معلّق على تعلّقهم بالسدة الرومانية ، وانهم لتلك السدة الرسولية مدينون بوجودهم الديني وثباتهم الاعتقادي وكيانهم السياسي والمدني ، وانهم اذا افترقوا عنه او ابتعدوا قيد شعرة يزول مجدهم ويغيب طالعهم !

فمن كان يظن ان جرس الكنيسة في حلتا يوم كان يُقرَع وحده في حفلة تنصير الياس الحويك قبل ست وخمسين سنة كان يدعو اجراس الكنائس في لبنان

لتشاركه في فرحه، ولو بعد نصف قرن ونيف. ومن كان يتوهم وتتنذر، ولو في الحلم، ان صوت ذلك الجرس الذي كان يضيع صداه في اودية حلتا المجاورة بعد ان يتجاوب فيها سيضيع بين اصوات اجراس لبنان المترنحة فرحاً في صباح ٥ كانون الثاني سنة ١٨٩٩ ؟!

ان ما هو مجهول عند الناس لمعلوم عند الله، وما هو صغير في عيون البشر لعظيم في عينيك يا رب! ولكن كم سُمع في لبنان على اثر انتشار بشرى ارتقاء الحويك الى كرسي بطرس الانطاكي كلام يشبه كلام نتنائيل « الاسرائيلي الذي لا غشّ عنده »[1]: «أمن حلتا يخرج راعي الموارنة ؟ ايكون في حلتا شيء صالح ؟ »[2]

أجل هذا كان رأي أكثر الناس يوم ذاعت البشرى بالبطريرك الحويك. امّا رأي العناية الالهية فقد كان غير ما ارتأى البشر. فما احسن الاعتماد على الرب وعلى عنايته الصمدانية وما افقر الاتكال على الناس وعلى نظرهم القصير!

ولما قُرعت الاجراس في كفرحي حيث جلس القديس يوحنا مارون، اول بطريرك على الطائفة المارونية في لبنان، كانت غرّة، والدة البطريرك الياس الحويك، في كنيسة البطاركة هناك تصلّي حسب عادتها التي واظبت عليها بعد إرمالها ثلاثين سنة في تلك الكنيسة لا تفارقها لا ليلاً ولا نهاراً كأنها حنّة النبية تنتظر في هيكل الرب عزاء اسرائيل[3]. فلم تقطع صلاتها ولا سألت عن اسباب قرع الاجراس. فجاءها من بشّرها بارتقاء ابنها الياس الى كرسي بطرس الانطاكي فقالت: « جعل الله ذلك لخلاص نفسه وخير الطائفة، وحماه من المجد العالمي. اني اخاف ان يجرّه مجد البطريركية الى المجد الباطل فيضطر ان يتأسف يوماً وهو في ابان العظمة البطريركية على سذاجة حلتا وقداسة الحياة فيها! فصلّوا لاجله »!

عواطف امّ قديسة ما كان يبعدها عن الله وعن سذاجة حياتها شيء من عظمة هذه الحياة!

الّا اننا نستطيع ان نجاوب تلك الام التقيّة بعد ثلاث وثلاثين سنة مضت على ابنها الياس في البطريركية المارونية، بعد ان بلغ ابنها اوج المجد في حياته،

١) يوحنا ١: ٤٧ ٢) يوحنا ١: ٤٦ ٣) لوقا ٢: ٣٦ و٣٧

ولم يبقَ مجال للاستزادة ، بعد ان شاهدنا ادوار ذلك المجد في حياته وفي مماته ، أن لا تخافي ايتها الام التقية على ولدك فانــه سيعيش في مجد البطريركية كما كان في حضنك وتحت نظرك في مزرعة حلتا الصغيرة ملاكاً في جسم انسان ساذجاً عن حكمة مقدسة في اقواله وفي اعماله ، لا يزهو ولا يتكبّر ، ينسب كل حسن فيه وكل عظمة ينالها وكل كرامة تأتيه وكل نجاح يصيبه الى الله وحده والى عنايته الصمدانيــة ، مغمضاً عينيه عن ذاته كما اغمضها عن المجد والكرامة اللتين كُفّن بهما يوم دفنته التي ما رأى لبنان ، ولا الشرق لها مثيلًا في جميع تقلّبات ايامه ولا دُرج في صفحات تاريخــه صفحة شبيهة بتلك الصفحة الخالدة. ألا قرّي عيناً فهذا الولد هو قرّة لعينيك كما دعا لك ولوالده نسوة حلتا يوم وضعتِه غلاماً في دُجى ذلك الليل البهيم ليل ٤ كانون الاول ١٨٤٢ !

انا اعتقد ان صلوات تلك الام وسذاجتها وتواضعها وقداستها هي التي اوصلت الياس الحويك الى ما اوصلته. فما اعظم الام التي تصلّي وتكون قديسة ، انها تكون كنزًا للوطن عند الله وعند الناس ، ولا غرو فاننا قد تعوّدنا ان نرى الى جانب كل قديس وكل عظيم امًا عظيمة وقديسة . فالى جانب القديس اغوسطينوس فخر افريقية ومجد اساقفتها وعمود الكنيسة الجامعة وملفانها ، نرى امه القديسة مونيكا التي ردت اغوسطينوس بصلواتها الى الله فكان منه ما كان ومن كان . والقديس لويس التاسع ملك فرنسة يكاد يحتجب بجلالته وعظمته امام عظمة امه الملكة بلانش ده كاستيل ! وهكذا دواليك كلما تأمّلنا تواريخ الرجال العظام في الدين والدنيا.

* * *

قد تساءل الناس في ذلك العهد ، ونحن نتساءل معهم اليوم ، ما الذي حمل الاساقفة الموارنة آنئذٍ فانتخبوا المطران الياس الحويك بطريركاً ولم يختاروا المطران يوسف ابا نجم كما كان يتوقّع الرأي العام في الطائفة والبلاد ؟ وما هي الوسائط البشرية التي استخدمتها العناية الالهية حتى توصلت الى غرضها رغم اغراض الناس وظنونهم ؟ ان من امعن النظر في المسألة وحكّم عقله وحكم على الاشخاص كما كانوا وليس كما يريد ، تتجلّى له الحقيقة بأجلى مظاهرها .

نظرَ الاساقفة الموارنة المجتمعون وتنبذ في بكركي الى كفاءة كل منهم ، فوجدوا ان الحويّك كان المطران الذي اختاره البطريرك الراقد بالرب ، يوحنا الحاج ، من كان يعرف زمانه ورجاله افضل معرفة ، ليحقق افكاره ومشاريعه الكبيرة فأسند اليه الاهتمام بإحياء مدرسة رومية ، وبانشاء الوكالة البطريركية في القدس ، وبالحصول على كراسي مجانية للاكليريكيين الموارنـة في باريس وبتأسيس جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات. وان الحويك كان عند حسن ظنّ ذلك البطريرك المقدام ، وانه قام بمهمته احسن قيام وفاز بها سريعاً فوزاً لم يسبقه اليه احد قبله ، اذ كان سبق فعُهد الى بعض الاساقفة السعي لتجديـد مدرسة روميـة مع التفويض اللازم لذلك فلم يفز احـد منهم في مهمته. ووجدوا ان الحويك كان اوسعهم علماً واكثرهم اختباراً قد تمرّن بالاسفار ، واحتكّ بكبار الدين والدنيا في الشرق والغرب ، وكان قريباً من قلب الحبر الاعظم بابا رومية لاون الثالث عشر ، وتلميذاً من خريجي جامعة انتشار الايمان المقدس . ورأى المطران ابو نجم المرشح الوحيد الذي كان يزاحم الحويك ، ان الحويك صديقه الصدوق ، ورجل الساعة بعلمه وفضله، فتناسى شخصيته وبرزت امامه شخصية الحويّك لامعة لا تشوبها شائبة ، فقال مع القديس يوحنا المعمدان: « له ينبغي ان ينمو ولي ان انقص.»[1] فآثر ان يتنازل لصديقه من ان يتشبث بذاته ليظلّ السلام سائداً في ربوع الطائفة ولينجو من المسئوليـة العظيمة في تحمل مشاقّ البطريركيـة . فالعلم الراجح في الحويـك والفضيلة الممتازة ، والاختبار الطويل ، والثقة العمياء التي كانت للبطريرك يوحنا الحاج فيه وفوزه في ما اسنده اليه من المهامّ الخطيرة، وحكمة وتضحية المطران ابي نجم والرغبة في اجراء الانتخاب البطريركي بـدون اختلاف خشية من ازعاج روميـة ، كل هـذا ألجأ المطران ابا نجم ليقول لاصحابه لا تقترعوا بعد لي ولكن لأخي المطران الحويّك فهو افضل مني . قال هذا وفعله امام الجميع ، فكان كبيراً بتنازله وتواضعه ، كما كان كبيراً من قبـل بعلمه وفضائله . وكان من وراء عمله ان العناية الالهية اتمت مقاصدها وفازت بن شاءت.

---

١) يوحنا ٣: ٣٠

ان اتحاد الموارنة برومية تظهر نتائجه الحسنة في مثل تلك الظروف لان معرفة الاساقفة اصحاب الحق بانتخاب البطريرك ان اختلافهم قد تكون عاقبته الالتجاء الى رومية للفصل فيه ، وحرمانهم من حق لهم مقدس اساؤوا استعماله ، تضطرهم الى الاستعداد والتفكير ، والحرص الشديد قبل الاقدام على عمل يخسرهم حقهم او يشير الى انهم ما عرفوا الاستفادة منه. وهم في هذا امثولة لغيرهم من الطوائف الغير الكاثوليكية ، ومثال يُستفاد به منهم لدوام الاتحاد مع رومية.

فبارك الله باتحاد يفيدنا للارض وللسماء. وسلام على أرواح اولئك الاساقفة الذين عرفوا ان ينظروا الى مصلحة الطائفة ويفضلوها على مصالحهم الشخصية ، الذين آثروا مجد الطائفة ومجد الكنيسة ومجد الله على مجدهم الخاص . ان اجيال الملة المارونية واجيال لبنان تعترف بجميلهم وتبارك الى الدهر اسماءهم وتخلد لهم ذكرهم. وتباركت العناية الالهية التي تسخر لارادتها العقول والقلوب من كبار الناس وصغارهم !

نظرة الى البطريرك

اذا انت رمقت الكوكب بنظرك تراه كله ، او اذا انت رفعت لحاظك الى لبنان من بعيد وانت راجع اليه من المهجر على ظهر السفينة تشاهده جميعه بعظمته وجلاله يناطح السماء بآكامه الدهرية البيضاء ثلجاً ، ويختلط بسواحله مع البحر وباطرافه المرتفعة مع الافق والفلك العالي . ولكنك اذا دنوت من لبنان بذاتك ووقفت في وادٍ منه او في اي مكان فلا يقع نظرك الا على بقعة منه صغيرة هي الاقرب اليك ، ويغيب الباقي عنك فتصرف الايام وربما الشهور ، تتنقل فيه من بقعة الى بقعة على قدميك او في سيارة لتراه جميعه وتعجز ويعييك التعب . واذا ادناك المنظار المكبّر من الكوكب لا تشاهد منه الا نقطة من بحر لا شيء فيها من جمال ذلك الكوكب السيّار ولا من سنائه ! هكذا يكون حظك من الرجل الكبير الطويل العمر الكثير الاعمال ، اذا انت رمت ان تقرأ سفر حياته جميعه يوماً فيوماً ودقيقة فدقيقة. انك تضيع بين المألوف والتافه من اعماله وبين الخطير والنادر القياس منها فلا تدرس الانسان الكبير بوقائع ايامه كلها ، بل قف على جبل عالٍ من بعيد ، وانظر

اليه جبلاً عالياً بعيداً عنك فتمتع لحاظك بعظمته وشموخه في الفلك العالي بجمال هضباته وسفوحه واوديته وصخوره ، فتتهيّب وتدرك كل حدوده بلحظة عين دون ان تزعج نفسك كثيراً. واكتفِ بان تقف ببصرك على بعض ما يلفت النظر من ساحر الجمال وجلال الخلق . قف بعيداً عن الرجل الكبير وادرسه بمجموعه فتراه كله ، وخذ لك من حياته امثلة يكون لك ايٌّ منها انموذجاً في الحياة . اني اعتمدتُ ألّا افعل الا هذا في اللمحة الوجيزة التي اضعها عن البطريرك الحويك . وما عساني اورد في هذه الفذلكة عن رجل عظيم عاش تسعين حولاً تقلّب فيها في جميع المناصب الدينية وقابل اعاظم عظماء الارض من سلاطين وامبراطرة وملوك ورؤساء جمهوريات الى ان صار عميد لبنان فكان للبنان تاريخاً حافلاً بالاعمال الكبيرة وبالمآثر الخطيرة في قرن كامل ؟!

وما عساني اقول عن بطريرك قضى ثلث قرن بطريركاً حدثت في ايامه حوادث خطيرة غريبة من حرب عالمية ومجاعات ونوائب ، ومن سقوط ممالك وقيام أُخرى على انقاضها ، ومن زوال سلطنات وامبراطوريات من سفر الوجود الدولي ، ومن رجوع الاستقلال الى لبنان بعد ان فقده ثمانين حولاً ؟!

لهذا اني اعرض لانظار القارئ الكريم هيكل تاريخ الحويك في بطريركيته موردًا خطوط رسمه الجليل خطاً خطاً ، ذاكراً موقفه من ربّه ، ومن طائفته ، ومن رومية ، ومن فرنسة ، ومن لبنان ، ومن سائر ما يتفرّع عن ذلك .

غير اني قبل ان اشرع في التفصيل استعير القلم العلي السيّال ، قلم الاسقف العسجدي الفم والقلم ، الاصيل الرأي ، فخر الاسرة البستانية بحكمته ورقّته واجتماع القلوب على محبته ، المطران اغوسطين البستاني الذي ما عرف احد ان يصوّر البطريرك اللبناني بريشته كما صوّره هو ببراعته الخلّابة فقد صوّر اخلاق البطريرك كلها فاجاد واصاب بل اجاد وبلغ حد الاعجاز وما ترك لمستزيد مجالاً ، وصفه في الكوكب السيّار الذي دوّن فيه حوادث رحلة البطريرك الحويك عام ١٩٠٥ الى رومية فباريس فالاستانة ، قال ص ٢٠ :

« وقصارى الكلام ان غبطة سيدنا وأبينا المطوّب جمع من الكمالات والفضائل ما قلّما يجتمع لافراد الرجال فزيّنها بالمآثر وحسن الاعمال . وهو ،

حرسه الله ، كما هو معلوم عند الجميع ، شديد الثقة بالله والاتكال عليه ، عزّ ثناؤه ، طاهر الذيل ، طيّب السريرة ، حرّ الضمير ، عزيز النفس ، سخي اليد ، نافذ البصيرة ، قوي الذاكرة ، رائق الذهن ، رحب الصدر ، قرن الفطنة بالشجاعة والعدل بالرحمة ، لا يحابي بالوجوه ، ولا يميل عن قصد السبيل ، رضيّ في كلامه ، صادق في روايته ، وفيّ بوعده ، لطيف بمحاضرته ، مهاب في مجلسه ، بعيد عن الغضب ، قريب الى العفو ، أب وديع ، ورئيس حكيم ، ساهر على اعمال وظيفته السامية فلا يُقضى منها عمل ولو طفيفاً الا بعلمه وامره ولذلك يُرى مقامه البطريركي ، الذي ملأه بمناقبه الغرّاء ومزاياه الفريدة ، موضوعاً لاجلال العظماء ولاحترام كرام الناس من كل ملة ونحلة ورتبة ومقام»[1] .

هذه صورة البطريرك الحويك منذ ارتقى الى السدة البطريركية سنة ١٨٩٩ الى عهد وصفه الكاتب الالمعي الامين سنة ١٩٠٥. هذه صورته من ذلك الوقت الى وفاته كما عرفتها بذاتي مرارًا ، وكما عرفها كل من تقرَّب من ذلك الرجل العصامي القديس واللبناني الفذّ. هذه هي صورته كما سمعنا بها ممن عرفوه مطرانًا وكاهناً واكليريكياً ، لقد كان كجبل صنين الذي وُلدنا وعشنا وغوت وهو ماثل امامنا ، جبلًا عالياً مهيباً لا يتغيَّر ؛ بل كالارز الخالد في لبنان الذي يحيا وينمو ، وتتفيأ في ظلاله الاجيال والشعوب اللبنانية ، وهو هو كما كان لا يتغيَّر في جوهره ولا في نضارته ولا في جماله .

هذه صورة الحويك كما كان في جميع ادوار حياته . وقد رأينا شيئاً منها في ما اسلفنا فقلناه ، وسنرى الباقي في ما سنسرده بالاختصار من وصف حياته ولا سيما في عهد بطريركيته . وقد سبقت فوضعت صورة البطريرك كتابةً ووصفاً كما اعتاد الناس ان يصدّروا تراجمَ العظماء بصورهم الشمسية !

---

١) راجع الكوكب السيَّار في رحلة . . . مار الياس بطرس الحويك . . . الى رومية وباريس والاستانة العلية ، وهو سفر نفيس من انفس ما كُتب في الرحلات اجتمع فيه من الفوائد ما ندر ان يجتمع في سواه . كُتب برقة وسلاسة وانسجام اقل ما يقال فيه انه السهل الممتنع ، صفحاته ٣١٢ صفحة ، وهو صفحة مجيدة من حياة البطريرك اللبناني لا غنى لمن يريد ان يتعرَّف جيدًا الى ذلك البطريرك العظيم عن مطالعتها كلها . والادب والتاريخ مدينان بها لعلم سيادة المطران البستاني عهدَ كان لا يزال قساً نائباً عاماً للرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية .

ابحاث تمهيدية لدرس فلاسفة العرب : ٢

الترجمة والمترجمون

بقلم الخوري يوسف قارس ، من اساتذة كلية القديس يوسف

ما اصدق كلمة فاه بها احد المؤرخين متكلماً عن دور سورية في العالم القديم اذ قال: «كان اهلوها من ممدّني العالم وحاملي لواء الحضارة الى الشعوب». وان التاريخ ليكشف لنا الستار عن حقيقة هذا الدور متى تصفحناه ، ووقفنا على حياة ذاك الشعب السوري واعماله الخطيرة في سبيل رقي المعمور وتقدّمه ، وقرأنا تلك السطور الخالدة التي كتبتها يد الزمان اكراماً لمجد اثيل وذكر لا يموت.

فان كان على شواطئ سورية نشأ الشعب الفينيقي الذي حمل الى اطراف الارض ، على شراع تتقاذفه الامواج ويتقلّب مع مهبّ الريح ، ثمرات روحه النشيطة ، وعلّم الامم اساليب الزراعة والصناعة والتجارة ، ووضع تلك الحروف العجيبة التي نجعل منها قوالب لسكب افكارنا ؛ ففي سورية ايضاً عاش مَن كان لهم الفضل في نشر الفكر اليوناني في الشرق ، في حمل ثمرات عقول فريدة الى مدنية لم تحلم بمثالها من قبل. اعني بهؤلاء المترجمين من سريان وغيرهم الذين استقوا عن الاغريق فلسفتهم وعلومهم ، ووضعوها في اللغة السريانية اولاً ثم نقلوها الى العربية ، لغة الاسلام في العصور العباسية. وسوف نلقي نظرة اولى على التراجم السريانية فنتكلم قليلاً عن قيمتها ، ونشير الى اشهر النقلة اليها. ثم ننتقل سريعاً الى ما يهمنا خاصة ، اي الى التراجم العربية التي نحن في صددها.

التراجم السريانية

كانت فتوحات الاسكندر واسطة لتعارف الغرب والشرق ، واحتكاك مدنيتَين عريقتَين في القدم والتقدّم: حضارة الاغريق التي كانت اذ ذاك في اوج

علاها ، وحضارة شعوب تفتخر بانها مهد الترقي والعمران كالاشوريين ، والفرس ، والهنود ، والسوريين .

لم تكن نتيجة هذا الفتح العظيم منحصرة بان خضع المغلوب صاغراً للغالب مقدماً له الجزية حاني الرأس امام جحافله ، بل دان ايضاً لسطوته المعنوية ومشى تحت شعار مدنيته .

لم يكتفِ المكدوني المنتصر بان تسيطر بلاده على الاجسام ، لكنه اراد ايضاً ان يمتد تأثيرها الى العقول ، فكان ، كما دعاه التاريخ ، من قادة الفكر البشري .

وبين الشعوب التي اثرت فيها المدنية اليونانيـة وانصبغت زمناً بحضارتها ، نذكر اولاً سورية . فانها عُرفت منذ البدء بمقدرة غريبة على ان تتمثل كل ما تشاهد فيه غذاء حياتها المادية والروحية . فانهـا لم تتعرف الى علوم الاغريق ومعارفهم حتى فهمت ما بوسعها ان تكتسب منها ، واخـذت بكل نشاط تقتبس دون انفة ولا خجل من منتوجات مشاهير اليونان ، وتدرس على فاتحيها آثارهم النفيسة ، حتى بارتهم او اوشكت ، وغـدت بـلاد سورية اغريقية ثانية . ومن العلوم التي اخذتها عن اليونان وبرزت بهـا كانت الفلسفة ، فكان السوريون يشتغلون بهذا النوع مستخدمين لغة اليونان او لغتهم بواسطة المترجمين الذين نقلوا الى السريانية .

ابتدأ عصر ترجمات الفلسفة اليونانية الى اللغة السريانية في القرن الرابع ، وامتدّ الى القرن الثامن .

واول مترجم نعرفه هو بروبوس . فقد كان قسًّا ، يشتغل بصناعة الطب . عاش في اوائل القرن الخامس ، وشرح مؤلفات ارسطو الجدليـة ، وكتاب الإيساغوجي لفرفوريوس الفيلسوف . واشتهر خاصة اذ ذاك بين المترجمين سرجيوس الذي توفي بعمر سبعين عاماً في القسطنطينية سنـة ٥٣٦ ، وكان قساً وطبيباً ايضاً علّم في مدرسة الاسكندرية ، وكان لتعاليمه مركز سام . وترجم سرجيوس عن اليونان العلوم الالهية والاخلاقية ، والعلوم الصوفيـة ، وشيئاً كثيراً من صناعة الطب .

ولم ينطفئ سراج الترجمة والنقل بعد احتلال العرب لسورية بل ظلّ السوريون منعكفين على الشغل بالعلوم اليونانية وخاصة بالفلسفة . فنشاهد في ذاك الوقت يعقوب الرهاوي يترجم الى اللغة السريانية العلوم الالهية والمنطقية ، فيبادر اليه الطلاب من مسيحيين ومسلمين يبغون الوقوف على اسرار الفلسفة ، فيتساءل برهة هل يُباح للاكليروس ان يعلموا اولاد المسلمين دون ان يخلّوا بالشريعة . وهذا يدلّنا على انتشار وشهرة تعاليمه في سورية .

واما حكمنا على قيمة هذه التراجم فنقدر ان نقول انها مطابقة بالاجمال للاصل اليوناني . نقول « بالاجمال » لأن السوريين لم يحكموا تماماً تلك التراجم على كونهم قد تعمقوا باليونانية ، ووقفوا على اساليبها ، واشتهر منهم فيها كثيرون ، حتى ان القديس يوحنا فم الذهب مثلاً كان يعدّ من أئمتها .

انما الوقوف على اللغة وحده ليس كافياً في مثل هذه العلوم ، بل يجب ايضاً على المترجم ان يكون مطلعاً تمام الاطلاع على عقلية وحياة المؤلف ، وخبيراً بعقيدته الدينية التي لها تأثير مهم في الفلسفة . وهذا لم يتوفر كثيراً للسوريين النصارى الذين كانوا غرباء عن ديانة الاغريق ، وبعيدين عن عقليتهم ومعتقداتهم . لهذا يجب الّا يأخذنا العجب اذا شاهدنا الفريق الاكبر من النقلة في هذا العصر يخطأون في فهم النصوص اليونانية رغم تبحرهم في هذه اللغة ، او يتركون فراغاً عند عجزهم ، ثم احياناً يجتهدون في ان يملأوا الفراغ من عندياتهم . وبما انهم كانوا نصارى ، ومن الاكليروس ، كانوا يلتجئون بالطبع لسدّ الفراغ الى تعاليم النصرانية والى مؤلّفات بطرس وبولس وسائر الكتب المسيحية . وقد كانت تدفعهم احياناً عاطفتهم الدينية وعقيدتهم الراسخة الى تمحيص هذه الفلسفة قبل نقلها الى لغتهم ، فلا يقبلون ما كان فيها مماكساً للمسيحية او يعطون ما كان وثنياً منها صبغة مسيحية ، غير عابئين للتصحيف والتحريف . فتصبح في تراجمهم الهة الاغريق العديدة الهاً واحداً سرمدياً ، والقدرُ عنايةً الهية ، ويلبسون رداء مسيحياً كل ما يتعلق بالعالم والابدية والخطيئة . وهكذا تطلعنا تآليفهم على فلسفة يونانية في قالب مسيحي .

التراجم العربية

من تصفح تاريخ دول العرب ووقف على فتوحاتهم ودرس آدابهم تأكد ان السوريين في كل هذا يداً قوية وفضلاً لا ينكر. فهم الذين ، في عهد الدولة الاموية ، هذبوا فاتحيهم وصبغوهم بمدنيتهم ، ومشوا في طليعتهم نحو الفتح والاستعمار ، ومرّنوهم في فنون الحرب ، وجعلوا من قبائل الغزاة جيوشاً منظمة ودولة مهابة . وقد عرف معاوية فضل السوريين وفهم انهم وحدهم لحريون ان يكونوا اساس مملكة واسعة ودعائم ملك عظيم ، فقربهم اليه واستفاد من خدماتهم الجليلة . فكنت ترى اذ ذاك المهندسين والبنائين وارباب الحروب والبحريين والكتبة والصيارفة واصحاب الدواوين سوريي الجنس حتى ان اهل الجزيرة اخذوا بالتشائم ، وخافوا على نفوذهم تجاه هذه السيطرة السورية.

وان لم يبقَ للسوريين في الدولة العباسية ذاك النفوذ الذي عرف لهم ايام الامويين ، وان تكن انتقلت عاصمة العرب من سورية الى العراق ، وحلّت بغداد محلّ دمشق الشام ، فرغم كل هذا نرى دور السوريين لم يتلاشَ ، وتأثير مدنيتهم لم يزل . فقد كانوا حملة العلوم والمعارف الى العرب وناشريها بينهم.

وبين العلوم الدخيلة التي نقلها السوريون للعرب كانت الفلسفة المأخوذة عن الاغريق . فقد عرفوها بواسطة التراجم ؛ وهي ما نبحث فيه اليوم.

تبتدئ التراجم العربية في اوائل القرن الثامن ، اذ اخذ بعض العلماء السوريين ، تحت رعاية وكنف الخلفاء العباسيين ينقلون تآليف اليونان الفلسفية الى العربية ، معرّفين العالم العربي ، الذي كانت تقتصر معارفه على شعره وعلوم لسانه ودينه ، بأرباب الفكر البشري ، بافلاطون الالهي ، بارسطو المعلم الاول ، بزينون ، وفورفيريوس ، بأساتذة المدرسة الاسكندرية وغيرهم من مفكري اليونان.

شعر العرب في الدولة العباسية ان ما عندهم من العلوم لا يكفي ، وان دولتهم العظيمة التي تمتد الى اطراف العالم لم تزل فقيرة محتاجة الى الرقي العلمي

وانها ، مهما تكن عليه من السطوة المادية والبأس ، لا تستطيع ان تنمو وتتقدم اذا كانت متأخرة في القوى العقلية . فقام خلفاؤهم يدوّنون هذا العجز الروحي ، باحثين عن علوم يقتبسون منها ، ومعارف يقطفون من اثمارها . فمدوا يدهم اولاً الى جيرانهم من فرس وهنود ، واخذوا عنهم ما عندهم من موافق . لكن ذلك لم يملأ الفراغ ، الى ان اداروا لحاظهم الى بحر زاخر اغناهم عن مؤونة البحث والتفتيش ، فبادروا يستنجدون باعوانهم السوريين ليكشفوا لهم النقاب عن هذه الكنوز الثمينة . ومن كان كالسوريين يحسن نقل هذه العلوم ؟.. مَن غيرهم يعرف اليونانية والسريانية والعربية ليكون وسيطاً بين العقل اليوناني والعربي ؟

كانت في اول القرن الثامن جماهير النقلة تشتغل بالترجمة الى العربية تحت كنف الامراء ، فيجزلون لهم العطايا ويصلونهم بالكثير ، حتى انه يروى ان المأمون امر لابن حنين نقل ما يكتبه ذهباً . فكان عصر المأمون ، ذاك الامير الذي يصوره لنا التاريخ محاطاً بالشعراء والكتاب جامعاً حواليه الفلاسفة والعلماء مشتغلاً نفسه بالفلسفة ، عصر الترجمة الذهبي . نقلت فيه معظم العلوم الدخيلة عن اليونان وتأصلت الفلسفة في الاسلام .

اما النقلة فلم يكونوا فلاسفة ولا مفكرين ولم يؤلفوا ولم ينشئوا . بل كان السواد الاعظم منهم يتعاطون مهنة الطب التي درسوها على الاغريق . ولما تعمقوا فيها اوصلتهم شهرتهم الى البلاط العباسي ، فقربهم الخلفاء وصاروا اطباءهم الاخصاء . ثم كُلّفوا نقل الفلسفة اليونانية الى العربية . قلنا « كُلّفوا » ، لانهم لم يكونوا مدفوعين من تلقاء انفسهم الى تعاطي الفلسفة ، بل قاموا في عملهم ، لا حباً بالعلم والاستطلاع على اسرار الفلسفة كما فعل السوريون في القرون السالفة ، بل رغبة في الصلات التي لم يكن يبخل بها عليهم الخلفاء ..

واول التآليف التي ترجمها هؤلاء الاطباء الى العربية ، بعد كتب بطليموس واقليدوس ، كانت آثار ابوقراط وجالينوس . لانه من الطبيعي ان يبدأوا بتعريف من تساعدهم على فهم صناعتهم .

هذا ، واذا بحثنا عن حياة هؤلاء المترجمين الاطباء ، وعن اسلوبهم في

الترجمة ، فلا نجد في التاريخ سوى معلومات قليلة لا تكفي لسدّ عوزنا الى الاطلاع . فاننا لا نعلم سوى اسماء وحياة بعض مشاهيرهم ، وبعض الكتب التي وضعوها . فيوحنا ابن البطريق قد ترجم عن افلاطون في اوائل القرن التاسع مؤلفه «Timaios» وعن ارسطو كتاب الحيوانات ، ومختصراً لكتابه في علم النفس ، واحد كتبه في العالم . ونقل عبد المسيح الحمصي عن ارسطو كتاب المغالطات والالهيات .

اما قسطا بن لوقا البعلبكي الذي عاش في القرن التاسع فقد اخذ عن الاسكندر الافروديسي شروحه لطب ارسطو ، وتعليقه على مؤلف ارسطو في الفساد ».

والذي لا شك فيه ان اشهر النقلة كان آل حنين: ابو زيد حنين بن اسحق (٧٧٣-٨٥٣ ؟) رئيس المترجمين ، وابنه اسحق المتوفى سنة ٩١٠ او ٩١١ ، وابن اخته حبيش بن الأعلم . فقد كان لهذه العائلة شهرة واسعة وسمعة بعيدة حتى انه نسب لافرادها شيء كثير ربما لم يكن لهم به يد . وشاع ذكر حنين في ذلك العهد حتى انه لا يكاد يوجد منقول الّا ولحنين فيه عمل ما بالتصحيح او بالتهذيب او بالتفسير . وقد رفعه المأمون الى رتبة رئيس المترجمين ، وكان يجزل له الصلات والعطايا ويعهد اليه بمهمات عظيمة . فارسله على ما يزعمون الى بلاد الروم ليأتيه بالكتب الفلسفية . وقد اقر له معاونوه المترجمون بالتفوق وسعة الادراك . وكان جبريل بن بختيشوع يدعوه بلقب « ربن حنين » اي: يا معلمنا حنين .

اما ما نقله آل حنين الى العربية فكثير ، تجاوزوا فيه كل العلوم اذ ذاك . وقد يصعب علينا تمييز التآليف التي وضعها حنين، والتي الفها ابنه او ابن اخته ، انا نعلم ان الاب نقل خاصة ما يتعلق بالطب والرياضيات ، والابن ترجم ما يتعلق بالفلسفة . وكان آل حنين يترجمون رأساً عن اليونانية او يصححون التراجم الموجودة ، او يعلقون عليها . وظلّ المترجمون يشتغلون في النقل حتى القرن العاشر . وبين الذين اشتهروا اذ ذاك نذكر ابا بشر متى بن يونس الذي توفي سنة ٩٧٤ ، وابا زكريا يحيى بن علي المنطيقي المتوفي سنة ٩٤٠ ، وابا علي

عيسى بن أسحق بن الحمار الذي تعرف سنة ولادته وهي ٩٤٢.

اما المورد الذي استقى منه هؤلاء المترجمون فانه صار معلوماً انهم لم ينقلوا رأساً عن فلاسفة اليونان المشهورين كافلاطون وارسطو ، بل عن تابعيهم وشارحيهم ومقلديهم ، مثل تعاليم المدرسة الاسكندرية والارسطوطلية المستحدثة ، وعن فرفوريوس وبلوتارخوس . وهم لم يكونوا يميزون بين المعلم الاول نفسه وبين شارحيه ، او يفرقون افلاطون الالهي عن الافلاطونية المستحدثة المصبوغة بشيء من المسيحية . ولا ننفي ان بعضهم قد يكونون تناولوا تراجمهم عن النص اليوناني الاصلي كآل حنين مثلاً ، فاتساع معارفهم وتبحرهم في اليونانية يمكنهم بسهولة ان ينقلوا تواً عن الاصل الحقيقي . وجل ما نؤكد ان الفريق الاكبر من النقلة ترجموا الفلسفة الى العربية عن النصوص السريانية التي كان وضعها اسلافهم في العصور الماضية ، وهذا اقرب للتصديق ، لان هذه النصوص كانت مع وفرتها سهلة المنال.

يدل على هذا انه عندما نقابل مثلاً بين ما ينسبه الاسلام الى افلاطون او ارسطو وبين تآليف هؤلاء في اليونانية نجد ، مع المطابقة الكثيرة ، بعض المناقضة التي تبدو لنا بعينها في الافلاطونية والارسطاطالية المستحدثة او شروح ارسطو وافلاطون بقلم من اتى بعدهم من الفلاسفة . مما يؤكد لنا ان التراجم لم تؤخذ عن مصدر يوناني.

قبل ان نحكم على هذه التراجم ونفهم قيمتها متسائلين هل اجاد اصحابها النقل واحسنوا في تعريب الفلسفة ، قبل ان نطنب في الكلام على علو كعبهم واجادتهم او نذهب في مغالاة معكوسة ونحط من قيمة عملهم ، لنتنبه الى امور خطيرة ، الى نقط هامة لا بد للناقد ان يفطن اليها قبل اعطائه الحكم النهائي :

اولاً : ان النقلة لم يكونوا فلاسفة ، كما سبق القول ، ولم يشتغلوا بها رغبة في الشهرة والاطلاع ، بل حباً او بالكسب وارضاء لخاطر الامراء.

ثانياً : ان الاصول السريانية التي اخذوا عنها لم تكن تخلو من اغلاط الفهم ، والنقلة اخذوها كما هي دون تنقيح او تصليح.

ثم ان هؤلاء الاطباء المترجين لم توقفهم صعوبة الترجمة ، ولم يملوا ما تعذّر عليهم فهمه ، بل اكتفوا بما ظهر لهم من المعنى لاول وهلة ، فعبروا عنه باللغة العربية غير عابئين احياناً بالمطابقة الدقيقة . وقد اشرنا الى مهمة اسحق بن حنين في تنقيح وتصحيح مثل هذه التراجم .

ورب من يسأل هل بقي شيء من تلك التراجم ؟ فنجيب ان يد الضياع قد اخذت باكثرها . ولا شك ان العرب انفسهم لم يحافظوا عليها ، بعد استخدامها واستغنائهم عنها بشروحهم وتآليفهم .

فالكثرة المطلقة من تلك الآثار قد بادت ، ولم يبق الّا القليل . من ذلك مقالة لقسطا بن لوقا في الفرق بين الروح والنفس يقول فيها ان الروح مادة مفارقة ، مركزها في البطن الشمالي من القلب ، وهي التي تحيي الجسم البشري وتجعله يتحرك ويشعر ، وهذه الروح تتلاشى مع فناء الانسان . اما النفس فبسيطة وغير معرّضة للتغير ولا تفنى عند فنائه ، ومن مزاياها ان تكوّن بوقت واحد افعالًا متناقضة تمام التناقض ، وان الروح هو الوسيط بين النفس والجسم وسبب تحرّك وشعور هذا .

ومن العجب في تاريخ النقلة الاطباء انه رغم الحياة التي عاشوها في بلاط الخلفاء ، ورغم الاكرام الذي حفوا به والعطايا التي اجزلت لهم ، ظلوا على عوائدهم وتقاليدهم محافظين ، ومكثوا في ايمانهم وديانتهم ثابتين . ولا شك ان الخلفاء قبل المأمون وبعده اجتهدوا ان يحملوهم على اعتناق الاسلام . ولكنهم لم يتزحزحوا عن عقيدتهم ولم يشركوا قط بمسيحيتهم ومن طريف ما يروى من هذا القبيل ان المنصور الحّ يوماً على ابن جبريل كي يدين بدين الرسول ، فاجابه معتذراً : « افضل ان اموت على دين آبائي واجدادي . وحيث هم يطيب لي ان اكون ان في الجنة وان في النار » . فضحك الامير وسكت .

هكذا عاش بسذاجة كلية وايمان راسخ متين ، في بلاط خلفاء الاسلام ، هؤلاء الوسطاء بين عقول الغرب والشرق ، واولئك النقلة الاطباء الذين حملوا الى العالم الاسلامي قبساً غدا نوراً بهياً ، ونفخوا في مدنيته روحاً انعشتها واسرت في عروقها الحياة .